الحياة صارخة !

بين الصوفية البلهـــاء والمادية الصماء !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الاعتراف بما أخرجه الحياة — السبيل إلى تعديل المادية الصماء — المجال الخصيب للجهد البشري — قضية لا شك فيها — الفكر والعمل — موازنة — عوامل الحياة أمينة — كفاح الحياة لحفظ الأحياء — إشارات إلى المستقبل

كل ما نجده فى الحياة يجب الاعتراف به وعدم إسقاطه من حسابنا ... فإذا ثبت أنه ينمى عوامل الحياة ، وأنه من وسائل تقدمها المادى والمعنوى ، فهو إذاً من عالم الخير والصلاح ، ويجب الوقوف فى صفه والدفاع عنه والإكثار منه ... وإذا ثبت أنه من عوامل الإفناء والفساد ، أو من معوّقات تقدم الحياة ، وجب الوقوف فى وجهه ومكافحته وإقناؤه .

وعلى هذا ينبغى ألا نثور على أى عامل من عوامل نمو الحياة وصلاحها ، مهما بدا أن فيه تكليفاً مجهداً ، كما ينبغى ألا نبقى على أى عامل من عوامل فساد الحياة ، مهما بدا أن فيه لذة عاجلة .

ومصلحة الاجتماع البشرى كله هى محور هذا ؛ لأن حياة الاجتماع هى طريق الترقى والقدرة على تسخير عوامل الطبيعة . فلسنا نستطيع السير وراء النظريات التى تنظر إلى الأفراد كوحدات مستقلة عند ما نتحدث عن الإنسانية العامة ، بل لا نستطيع السير فى هذا المقام وراء النظريات التى تنظر إلى الشعوب والأمم كوحدات مستقلة ، وإنما نسير وراء النظرية التى ترى إنسانية واحدة أمام طبيعة واحدة !

تلك أولى المقدمات فى السبيل إلى إدراك صدق الحياة ، والتسخير ، وإن المسألة كلها « حسبة اقتصادية » ومضاربة مالية تتبدل من زمان إلى زمان كما تتبدل صفقات الإنتاج وأسعار الأسواق .

وكارل ماركس قد رأى أناساً يرهقون أنفسهم فى طلب الرزق ويعملون فوق طاقتهم لادخار القوت أو الثراء ، ولعل هؤلاء أكبر عدداً ممن يرهقون الأبناء والبنات فى طلب المعاش وهم مكرهون أو مختارون، فلماذا أبطل عواطف الأسرة وأواصر الأبوة والأمومة ، لأن بعض الآباء والأبناء ينتفعون بجهود أبنائهم ويسرفون فى الانتفاع ، ولم يبطل عواطف « الأنانية » وحب الذات أو حب البقاء ، لأن أناساً من الخلق يجورون على أبدانهم وأذهانهم وهم يعملون لجمع الحطام ؟ لماذا تكون الأسرة « غير طبيعية » ، لأنها تسخر للمنفعة ولا تكون « الأنانية » غير طبيعية كذلك لأنها تسخر للمنفعة على هذا المنوال ؟

إن حاجة النفس الإنسانية إلى وشائج الأسرة لم تبطل قط فى مجتمع من المجتمعات ، وإن آداب الاجتماع قد تفيد فى إصلاح الأسرة أو وقايتها من عيوب الأفراد سواء كانوا من الآباء أو الأبناء . ولكن المجتمع لا يملك دليلا واحداً يحوله إلغاء الأسرة — إن أراده — حتى لو صح أن المرجع إليه وحده فى نشأة الأسرة وتتابع أطوارها ، لأنه يقيس على غير شىء حين يقيس المستقبل على الماضى فى هذه القضية ، ويعتسف طريقاً جديداً لا مسوغ لاعتسافه من الطبيعة ولا من الاجتماع

ولست أعنى بما تقدم أن كتاب الأستاذ عبد الواحد ينحو هذا النحو أو يفضى إلى هذه النتيجة ، لأنه فى الواقع لم يعدُ تقرير الحقائق الاجتماعية التى حصلها أساطين هذا العلم ممن لا يدينون بالماركسية ، ولعلهم ينكرونها إذا عرضوا لها بالبحث والمناقشة ، ولكنى عنيت أن الكلام عن الأسرة فى زماننا هذا خليق أن يقترن بالحذر والحيطة لئلا يؤخذ على غير مأخذه أو يعين على غير قصده . ولهذا رجعنا بنظام الأسرة إلى مرجعه من غرائز الحياة فى أبسط الأحياء ، ولم نشأ أن نقصر الحكم فيه على الاجتماع أو من يصطنعون الدعاية الاجتماعية ، لأن الأمر أعظم وأبقى مما تتناوله المذاهب والدعوات

عباس محمود العقاد

وتصور ما بها تصوراً صحيحاً ، وتصحيح عقائد الناس فيها ، وحملهم على الكفاح لإسعاد أنفسهم فى رحلتهم إلى الأرض أولاً ، وإلى الملكوت الذى ينتظرهم بعدها ثانياً .

ولكن مع الأسف يحاول كثير من الأدباء والفلاسفة والصوفية أن يفروا من وجه الحياة وينطلقوا مما يسمونه سجونها وأقفاصها ، ويقللوا من قيمة الجانب المادى فيها ويقللوا تبعاً لذلك من قيمة الجهد الصناعى الإنسانى ، ولا يعترفوا بالأجسام والشخوص والشكول الواضحة التى تملأ الحواس ، وتشغل الوعى الذى وراءها ، وتثير كفاية العمل إلى تقليدها ومحاكاة نماذجها ... كأنهم لا يرضيهم إلا أن تكون الدنيا رموزاً مبهمة وأفكاراً طليقة غير محدودة ولا مُبَلْوَرَة ...

إن المادة التى بها يضيقون ذرعاً ، ويحاولون أن ينفلتوا من سجونها وأقفاصها خَلْقٌ عجيب لا يليق بنا أن نزعم تفاهة اتصال النفس به وإعماق الفكر به . وإن أساطين العلم فى حيرة من أمر نشوئها وتعدد عناصرها . وقد خلقنا فيها وصورنا منها ، لندركها ونتعرف إليها ونتعجب ...

إننا ندرك الله تعالى وقدرته وعلمه من عمله البديع فى دولة الأجسام والأشكال ... ولم يأخذنا جميعاً إليه بأى دليل إلا من الأدلة المبثوثة فيها أو المرتبطة بها ...

إنها من أوعية أسراره ، ومجلى أنواره التى يرسلها إلى عقولنا وقلوبنا حتى نهتدى إليه ونؤمن به من غير أن نراه .

فلماذا تلك الحملة عليها والإزراء بها والتهوين من شأنها ؛ كأننا صرنا خالقين مبدعين قد أبدعنا شيئاً غيرها أو ظفرنا جميعاً بأمر عجيب خارج عن نطاقها !

قد يكون من المعقول أن نتطلع إلى القدرة التى أبدعت الطبيعة متلهفين إليها أن تطلعنا على عجائب ما لا نراه مثل ما أرتنا من هذا العجب الذى نراه ؛ فإن هذا دليل على شدة الحساسية ويقظة الأشواق وحسن الإدراك والتقدير لتلك القدرة ...ولكن ليس من المعقول أن نحقر ما نراه ونزرى به ونزعم أنه تافه ؛ فنتنبو عنه حواسنا وعقولنا ، ونبحث عما عداه من المخبوء ، ونتطلع إلى ما وراءه مع أننا لم نفرغ من استيعابه وإدراك جميع أسراره .

ويحاول آخرون أن يفضلوا حياة الأقدمين الخالين العجزة الجهلة على المحدثين القادرين ، ما دامت الحياة الحاضرة قد جرت هذه المتاعب وهذه الضجة الآلية التى ملأت اليابس والماء والهواء فأقلقتهم . فذهب هؤلاء وأولئك بالطبع غير ملائم لنمو الحياة واطراد تقدمها ، فيجب إهداره وعدم الالتفات إليه ؛ لأنه مذهب فيه ارتداد وانتكاس وتشاؤم ومقاومة لدورة الفلك التى أعتقد أنها تجرى بالناس إلى غاية صالحة لا بد من الوصول إليها ، لأن الله لم يخلق هذا العالم الإنسانى لكى يضيعه أو يعوقه أو يفوّت على نفسه الغاية من خلقه .

هو مذهب يحول بين معتنقيه وبين حياة القوة والسيادة على مرافق الطبيعة ، وهى سيادة لا يظفر بها إلا من اتصل بها اتصالاً وثيقاً وتعرف إلى الأسرار المكونة فيها ولم يقف عند حد مادامت الطبيعة تفتح له أبوابها وترفع أستارها ...

ومع أن مذاهب الإزراء والتحقير للمادة وشئونها والتشاؤم والنظر إلى الوراء دائماً والانتقاض على الحاضر ، لم تظفر فى مرحلة من مراحل تاريخ الإنسانية ، ومع أن الإنسانية لم تلتفت لقائليها أى التفات يبرر مضغ قضاياها وترديد دعواتها ... نجد كثيرين من الدعاة الدينيين والفلاسفة والشعراء يصرون على إحياء الدعوة إليها وتحكيمها فى الحياة وإفهام الناس أن فى الأخذ بها عقلاً وحكمة وإصابة لأهداف الحياة ... واعتقادى أن أكثر الإخفاق فى تعديل العقلية المادية الصماء وتقليل جشعها وتوسيع ضيقها راجع إلى هذه المغالاة من هؤلاء السادة فى إهدار القيم المادية للحياة ، وإلى مبالغتهم فى تجريد الحياة الإنسانية من ملابسات المادة ، وإلى افتراء أكثرهم فى إلصاق مذهبهم هذا بالمسألة الدينية التعبدية التى هى لباب القلب البشرى ومصباح العقل الإنسانى . حتى لقد أعرض وأجفل كثير جداً من الناس من الإقبال على الله والاعتقاد به ، وحاول كثير منهم أن يخفتوا صوته المجلجل فى ضمائرهم ويتجنبوا التفكير فيه ، حتى لا يحرمهم ذلك من تذوق الحياة فى دنياهم والعمل المادى فيها والإحساس بها والتمتع بطيباتها التى رأوا هؤلاء المتشائمين المحرومين يقبحونها وينفرون عنها ، ويزعمون أنها عبث ومأساة وخديعة ومجلبة لسخط الله وخذلانه ...

لقد ثبت أن المادة هى مجال عمل إنسانى خصب ثابت دائم

النفع للإنسانية جميعها ، وأنها هي الشيء الوحيد الذي تلتقي فيه الإنسانية بأفكارها وأيديها ، وترتفق منه مرافق نفعها جميعاً .

أما المذاهب والفلسفات النظرية فلم تلتق فيها للآن . فلا غرو إذا كان الإكثار منها والإسراف فيها مما يزيد الإنسانية افتراقاً وبلبلة وتقطع أمر .

وقد يجد أنصـــار الشك سبيلا إلى كل قضية فكرية ، ويستطيعون أن يلبسوا فيها حقاً بباطل ، ويقيناً بشك ، إلا قضية فكرية واحدة ، هي قضية « تفوق » الإنسان واطراد تقدمه المادي المبني على أساس إدراكه أسراراً من الطبيعة . وهذا يجعلنا نتجه إلى إعطاء هذا الجانب من حياته أعظم اهتمام ، حتى نخترق به حجاباً وراء حجاب مما يدنينا من الراحة والسعادة والعلم بالأسرار ؛ بل يجب أن نتخذ هذا الجانب العظيم في الإنسان أساساً للإيمان به وبصدق الحياة كما هي ثابتة في فكره العام . وإن هذا يعطي المثبتين لحقائق الأشياء حججاً دامغة ، ويقضي على مذاهب السفسطة والتشكيك . بل متى اتخذ هذا الجانب العظيم أساساً لحياة الفكر صح اعتباره أساساً للوحدة الإنسانية الشاملة التي طالما دعا إليها النظريون فلم يستمع إليهم إلا الأقلون ؛ لأنهم اعتمدوا على نظريات تختلف باختلاف الأجناس والبقاع ، وليست عامة يراها سكان الأرض جميعاً رؤية واحدة ويخضعون لنتائجها خضوعا واحداً كما هو الحال في رؤيتهم وخضوعهم لنتائج الأبحاث الطبيعية ذات الآثار الواحدة في جميع الأمكنة والأزمان .

ولقد أثبتت سيادة الغرب على الشرق أن عالم القوة المادية هو أساس حياة الحق وعمادها ، وأن الحق المجرد لا يعدو أن يكون فكرة فاكر ، أو حلم حالم ، ما لم تبرزه القوة المادية وتجسمه في أشخاص وآلات .

وبعد أن رأينا مَرَدَةَ الجو والبحر والبر يقذفون القنابل مصارع لراهبات الكنائس ، وأطفال المدارس ، ومجاثر المنازل ، وغير هؤلاء من عباد السلام والحق والرحمة : كيف يصح لنا أن نقول إن هناك حقاً يدافع وحده عن نفسه أمام باطل مدرع ببأسه ؟ !

وبعد أن رأينا أمماً كأمم الهند وشمال إفريقية تعبد الله بالأقوال والأشعار ، وتسبح بحمد الحق ليل نهار منذ مئات السنين ، فلم يحمها ذلك أمام سيادة القوة وجبروتها ؟!

إننا لم نجد غير الأقوياء بالقوة المادية مضطلعين بأعباء الحياة الاجتماعية ، فهم أسرع الذين يؤثرون في الأخلاق وفي ســـير الحياة ، ومن عداهم فلا تأثير لهم في مجرى الحياة إلا بمقدار ما تسمح القوة المادية بدراسة آرائهم ومذاهبهم . فلو أن ذوي الأفكار العليا والأخلاق الكاملة التمسوا القوة المادية كالتماسهم الحق ، وأثروا بها في مجرى حياة الجماهير ، إذاً ما وجدنا هذا التخلف الفظيع بين حياة الفكر والخلق وحياة الواقع .

مهما صفا الفكر وامتلأ بالخواطر الراجحة الكريمة فلن يجدي المجتمع جدوى واسعة متعدية ، إلا إذا عاونته اليد بوسائل تنفيذ ما يمتلئ به .

ومهما امتلأت المعابد فلن يجدي امتلاؤها الحياة شيئاً ، إلا إذا امتلأت الشوارع والمعامل والأسواق والحقول والجيوش بمن ينفذ روح العبادة في هذه المجالات .

كل فكرة معرضة للفناء السريع ، أو للركود والدفن في الصحف ، إذا لم يسعفها التجسيم والتشكيل والتطبيق .

والفكرة إذا جسمت في قالب دخلت باب الوجود الحسي ، وصارت محلا للتحسين والنمو والتجميل ممن يأتي بعد صاحبها الأول . أما إذا تركت حيث انبثقت فهي كائن موقوت من عالم الأطياف !

فيا رجال التصوف والشعر من كل جنس ! لا تحاولوا أن تصرفوا الناس عن حياتهم المادية ، فقد صارت جميلة معقدة منوعة مغرية ذات قيمة كبيرة وسلطان على النفوس ؛ وحاولوا أن تفهموا أنتم وأن تفهموا الناس أن الدين جزء من الحياة ، وليس منفصلا عنها إلا في جزاءاته الموعودة في المصير الآجل المحتوم .

ومن السهل إفهام الناس ذلك في هذا العصر الذي اتسمت فيه أدوات الإقناع والتأثير .

اجعلوه امتدادا لأحلام الناس في السعادة والجمال الذي يفتقدهم من دنياهم ، ولا تجعلوه حرمانا وخواطر وضعف تشاؤم وبكاء .

اجعلوا الأخرى صورة كاملة مضخمة دائمة من هذه الآلام الناقصة الفانية

ومن السهل أن تجعلوا من منطق العقل ومنطق الوجدان

ومنطق القدرة العملية للانسان حججاً للاقناع ...

***

أيهما أوقع فى النفس وأشد إثارة لابتهاجها بالحياة ؛ وأدعى إلى الفرح بالإنسانية : أن نظهر الوحدات الإنسانية فى حشود استعراضاتها النظمية والرياضية ، ومواكبها الفنية التى تظهر جمال أجسامها وإشراق دياجة الحياة بها ... أم أن نظهرها فى أفراد منثورة وزمر مبعثرة من الفقراء الضعاف العجزة الجهلاء الميزولين المكتئبين المتشائمين ، الذين يقتلهم الصمت والعزلة والوحشة ، قد طمست نضرة الحياة فى وجوههم ، وانطفأ نورها من عيونهم ، وخمدت شعلتها فى قلوبهم ، وتعطلت أيديهم من العمل ، وأذهلتهم من العلم فليس لهم مهارة فى مهنة ، أو أثارة من علوم الدنيا ؟

لا شك أن رؤية استعراض عسكرى أو نظامى أو رياضى كاف أن يقذف فى قلوب المتشائمين شعلا وشحنا كهربية تردهم إلى الفرح بالحياة والحماس لها ، وللمعيشة بالأجسام عيشة رحبة ، إن كانوا ذوى طبع سليم يستجيب لعوامل الحياة .

إننا نستطيع أن نقول : إن أجسام الإنسانية ماهى إلا نبات ، كماله وظهور أسراره والابتهاج به يكون عن طريق تصحيح أعواده وتقويتها وتجميلها إلى آخر حدود الصحة والجمال .

وإذا تفتحت أجسامنا فى صحة وقوة وجمال كما تتفتح الأزهار وتنضج الثمار ، حملنا ذلك على أن نحب الحياة ونحبنا ، ما دمنا قد جعلنا عقولنا وقلوبنا كمناطق النمو التى فى النبات ، محفوظة من الآفات وعوامل الفساد . وإن كل تنظيم جسمى ومادى مما يكون فى ذات الإنسان أو فى مرافق حياته يزيد فى ثقة الإنسانية بنفسها ، ويوضح أسرارها ، ويجلو امتيازها على غيرها .

وقد تدخلت يد الإنسان فى نبات الحقول ، ووزعت البذور بحيث ينال كل منها حظه وحقه من الماء والهواء والضوء ، وثبت أعواده متباعداً بعضها عن بعض بدون احتكاك وطغيان ، وسهرت عينه عليها فحرستها من الآفات والجراثيم الضارة ، فخرجت أعواده وأوراقه وثماره ناضلة وارفة راقصة ، تعطى الأرض الجمال والنماء وسداد الاحتياجات .

وكذلك فعلت مع الحيوان ، فأحسنت نسله وتخيرته ومنعت طغيان بعضه على بعضه ؛ وروضته واستأنسته حتى صار منظره فى المراعى والحظائر كذلك يعطى الأرض جمالا ورواء ومنافع .

فما بال يد الإنسان لا تتدخل فى مناطق نمو النفوس والأجسام الإنسانية بالتعليم والتهذيب والتربيب والتجميل ، بل تركتها تنمو نمواً « شيطانياً » متطاغياً ؟

ولقد أرى الوجه المشوه الأكمه المجدور القبيح المركب على جسم مهزول ، والحامل لسان قذر وعقل ممسوخ ، فأقول : هل يجوز أن تخرج ثمرة بطبيعتها إلى الحياة هذا الخروج ؟ ! أم أن هناك اعتداء على عوامل التكوين والتجميل التى تولت إخراج هذه الثمرة منع عنها الصحة والجمال ؟ !

إنه اعتداء مسلسل فى الأنسال المتحدرة فى أجيال الجهالة والضلال ...

فاسألوا الأمراض الخبيثة الوراثية ، وسلوا الأغذية السامة ، وسلوا الإهمال الشائن للأبوة والأمومة ؛ ولا تتهموا عوامل التكوين الأمينة الدقيقة .

إن كفاح الحياة الإنسانية فى سبيل حفظ ذاتها كفاح هائل ! فبرغم عوامل الفناء والدمار قد كثر عدد الإنسانية كثرة غصت بها أكثر بقاع الأرض خصوبة ، وضوعف عدد كل أمة أضعافاً مضاعفة ، وصارت مجموعات الناس وتشكيلاتهم أمراً لا يقاس به ما كان لهم فى القديم . وهذا مما يدل على أن شجرة الحياة الإنسانية وفصائلها خلقت للنمو والصحة والقوة والإنتاج ، وملء المسرح الأرضى الذى قدر عليها أن تمثل دورها فيه .

فنمو العدد ، ونمو صحة الأجسام ، ونمو العلوم ، ونمو الاختبارات والتجارب ... كل أولئك إشارات بليغة من حياة صادقة إلى مستقبل سعيد لهذا النوع الذى لما يعرف أسراره بعد ! ...

عبد المنعم خلوف

ادارة البلديات العامة

تنظيم

يطرح مجلس المحلة الكبرى البلدى فى المناقصة العامه توريد ٧٠٠ أردب شعير و ٣٥٠ حمل تبن وقد تحدد ظهر يوم ١٩٤٥/٦/١٨ لفتح العطاءات بديوان البلدية ويجب ان ترفق العطاءات بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمتها . ٣٥٤٢